المستشرق الروسي كراتشقوفسكي

واشهر آثاره في خدمة الادب العربي

للاستاذ بندلي جوزي من جامعة ياكو

احتفل في أواخر شهر اكتوبر من السنة الغابرة طلبة الاستاذ كراتشقوفسكي ومحبوه من المستشرقين الروسيين في غير طنطنة ولا ضجة يوبيله الفضي العلمي أي بانقضاء خمسة وعشرين سنة على حياته العلمية اوقفها خالصة على البحث والتدقيق العالي في آدابنا العربية ومظاهر حياة امتنا العمرانية من يوم ظهرت في ميدان التاريخ الى هذا اليوم. وكم كنت أود لو اشتركَ في هذا العيد عالمنا العربي حيث للاستاذ معارف ومحبون كثيرون يعرفونهُ معرفة شخصيَّة ويقدرونهُ حق قدره ولعلهُ يفعل متى عرف ذلك

عَرَفْتُ الاستاذ الفاضل سنة ١٩٠٩ في بيروت يوم كان مقيماً فيها يتردَّد على دروس آداب اللغة العربية في جامعة اليسوعيين ويطالع مخطوطات مكتبتها العامرة، ثم يبحث عن شعر الوأواء الدمشقي وهي مواد تأليفهُ الدكتوري في الشعر العربي الذي جعلهُ مقدّمة للديوان المذكور أو بالاحرى ملحقاً له

منذ تلك السنة وانا اراقب حياة الاستاذ العلمية عن كثب واطالع بامعان ولذة عظيمة كل ما كانت تجود به قريحتهُ الفيَّاضة وقلمهُ السيَّال ومعارفه الواسعة من المقالات والكتب العلمية التي كان وما زال ينشرها في مجلات بطرسبرج وبرلين وباريس وليبزج وأوبسالا الاختصاصية وفي بعض مجلاتنا العربية احياناً. واكثر هذه المؤلفات والمقالات امامي الآن — وانا اكتب هذه المجالة — وهي تبلغ المائة او تزيد وكلها او تقريباً كلها في آداب امتنا العربية من شعر ونثر وروايات وقصص وخرافات وطلاسم وسير الى غير ذلك مما لهُ اتصالٌ بالآداب العربية. وهي لا تقتصر على عصر او دور من ادوار ثقافتنا بل تتناول جميع ادوارها التاريخية بين جاهلي وأموي وعباسي وعصري، وبين عربي ومصري وعراقي واسباني وسوري وهلم جرًّا. بهذا أي بان يقف الاستاذ الفاضل المحبوب حياتهُ العلمية على الادب العربي وحده دون ان يتعدّاه الاّ في ما ندر الى اللغة والتاريخ، يمتاز على غيره من مستشرقي الغرب والشرق. فهو اذن ذلك العاشق المُوَحِّد الذي لم تستهوه غادة اخرى من غادات العرب كالتاريخ واللغة والفلسفة والدين. ولعلَّ في ذلك رمزاً جميلاً الى

حياته الشخصية العالية . فهو في آدابه ومعاشرته وعيشته المثال الاعلى الذي تصبو اليه ارواح السالكين والبررة الاطهار .. ثم هو يمتاز على زملائه بصفة اخرى وهي دقة ابحاثه واتساع نطاقها وقوة ابتكاره وترفعه عن البحث في المواضيع المطروقة المبتذلة . فهو لم يترك موضوعاً لهُ علاقة بالآداب العربية ولو بعيدة الاّ وطرقهُ ونظر فيه نظرة جديدة او القى عليه نوراً جديداً او توسّع فيه. وكلّ ذلك في عبارات طلية واضحة واسلوب علمي جدير بان يكون مثالاً اعلى لكل من يكتب في الآداب العربية أو في علم آخر . وأهمّ من ذلك في نظري أن الاستاذ العزيز لا يفرق في حُبّه بين الآداب العربية والامة التي انتجت هذه الآداب. فهو يحب امتنا حبًّا جمًّا لا يقلّ عن حبه لآداب لغتنا وثقافتنا ثم هو يحبها حبًّا فعّالاً عمليًّا لا نظريًّا فقط . فكم لهُ من ايادٍ بيض على بعض افراد هذه الامة وكم لهُ من دفاع مجيد عن مصالحها الحيوية وحسن سمعتها جزاه الله خير الجزاء ومدّ في عمره وعزّاه بحبّ اصدقائه والمعجبين بذكائه عما أصابهُ من محن الدهر الخائن بلا اثم ولا ذنب

ولو اردت ان اذكر جميع ما كتبهُ الاستاذ الفاضل من مقالات واسفار وأصفها وصفاً يبيّن ما جاء فيها من افكار مبتكرة ومعان دقيقة وعلم واسع ونقد جيد لما وسعتني صفحات عدد كامل من اعداد المقتطف ولهذا اراني مضطراً ان اقصر كلامي على بعض مؤلفاته وأمرّ بأكثرها مر السحاب

١ — شاعرية ابي العتاهية

هو اول بحث علمي وضعهُ صاحب اليوبيل سنة ١٩٠٦ وهو لا يزال طالباً في الفرع الشرقي من جامعة بطرسبرج وهذا البحث منتزع من بحث آخر أكبر منهُ وهو « خلافة المهدي » كان الاستاذ قدمهُ الى ادارة الفرع الشرقي في السنة المذكورة ليحصل به على اول درجة علمية درجة ال Candidat فحصل عليها ونال فوق ذلك مدالية ذهبية. وقد كان في نية الاستاذ ان ينشر البحث كلهُ الاّ انهُ عدل عن ذلك الى نشر جانب منهُ بعد ان نظر فيه ثانية وزاد عليه فجاء بحثاً مستقلاً في شاعرية ابي العتاهية وأدوارها

استهلّ الاستاذ بحثهُ هذا بمقدمة بيّن فيها وجوب درس الشعر العربي درساً قائماً بذاته ولذاته لا كمادة للتاريخ او اللغة بل كأحد مظاهر الحياة العربية العقلية والنفسية والاجتماعية وبرهن على ان هذه الغاية لا تدرك الاّ بالبحث عن زمن ظهور انواع الشعر ونموها وشاعرية كل شاعر مبرّز وصفاتها المميزة والاّ صعب التفريق بين شاعر وشاعر. كما ترى

ذلك في طبقات الشعراء التي تركها لنا السلف كطبقات ابي عبيدة وابن سلاّم الجمحيّ والمفضل بن سلمة وغيرهم ممن نهوا طبقاتهم ليس على تحليل نفسية الشاعر وبيان قوة شاعريّته الخلاّقة بل على ظواهر خارجية يدخل أغلبها في علم المعانيّ والبيان فكان من ذلك أنهم جمعوا وقرّبوا بين شعراء لانجمعهم قرابة معنوية وفرّقوا بين آخرين تربطهم أواصر لطيفة داخلية لا تخفى الاّ على الناقد السطحي

احبّ الاستاذ ان يؤيّد هذه النظرية فاخذ مثالاً لذلك شاعرية أبي العتاهية وبعد أن ذكر لمحاً قليلة من حياته المضطربة ومصادر شعره وأقوال بعض مستشرقي اوربا وشعرائنا الاقدمين كابي نواس وبشار بن بُرد وأبي تمام فيه ، انتقل الى شعر أبي العتاهية وبيان ما امتاز به عن غيره من شعراء عصره أو من سبقه ثم ذكر المراحل الشعرية، التي قطعها متأثرة بحياته الشخصية وبيّن أسباب انتقاله الفجائي من الدنيويات الى الزهديات وكل ذلك بأسلوب طليّ مقبول لاتعقّد فيه ولا عوج. وهذا البحث جدير بان ينقل الى العربية ليقف منهُ القارىء العربي ليس فقط على آراء الاستاذ الناضجة بل على أسلوب بحثه وهو الاهم، لاننا لا نزال في حاجة ماسّة الى معرفة أساليب الغرب العلمية اذ لا علم بدون أساليب علمية بل العلم نفسهُ هو الاسلوب

٢ — المتنبي وابو العلاء المعري

وهو بحث ممتع دقيق (ظهر في سنة ١٩٠٩ في ٣٥ صفحة) في ما كان لابي الطيب من التأثير في فلسفة أبي العلاء وشعره وبالاخص في فلسفة التشاؤم الغالبة في شعر فيلسوف معرة النعمان وفي آرائه الدينية . وهذا البحث جديد لم يسبق اليه أحد قبل الاستاذ كراتشقوفسكي

ابتدأ الاستاذ بحثهُ بذكر شيء قليل من سيرة المتنبي معتمداً في ذلك على ما كتبهُ عنهُ الثعالبي والواحدي والعكبري وغيرهم ثم استشهد ببعض أشعاره وأقوال معاصريه ومن أخذ عنهم في مذهبه وعقائده فلما ثبت عنده ان أبا الطيب كان يميل الى التشاؤم وبشكّ في بعض العقائد والشعائر الدينية أخذ يقابل بين آرائه وأقواله وبين آراء ابي العلاء المعري مستنداً في ذلك الى ما وصل الينا من كتب فيلسوف المعرة وبالاخص الى شرحه لديوان المتنبي المعروف «بمعجز احمد». على انهُ يظهر من مطالعة هذا الشرح ان أبا العلاء وضعهُ في صباه قبل أن يظهر كفره او تردده في بعض العقائد الدينية كالبعث والديمومة وخلود النفس وغيرها . ولهذا تراهُ في شرحه هذا يكفر أحياناً أبا الطيب لبعض أشعار وردت في

ديوانه أو يمرّ بهامر الكرام أو يتحلها معاذير باطلة وغير طبيعية كما ترى في الامثلة الآتية:
قال المتنبي

أنا مبصر وأظنّ أني نائم من كان يحلم بالاله فاحلما

« يقول أنا مبصر بعيني وأظنني نائماً من استعظام ما رأيت من هذا الرجل من العظائم والامور العجائب . ثم قال من كان يحلم بالاله فاحلم أنا أيضاً أي أنهُ لا يمكن أن يرى في المنام لانهُ لا يشبه شيئاً فشبّه هذا الممدوح بما لا يجوز التشبيه به وهذا افراط منكر قريب من الكفر وقيل أن في الكلام حذفاً ... »

وقال : وابهر آيات النهامي أنهُ أبوك وأجدى ما لكم من مناقب

« يقول عنى بالنهامي النبي (صلعم) كونهُ اباك ولكم مناقب كثيرة وكون النبي جدك وأباك أجدى تلك المناقب وهذا في الظاهر يوجب تفضيلهُ على سيد الخلق ... وذكر ابن جنّى أن أبا الطيب كان يتعسّف في الاحتجاج لهُ والاعتذار بما لست أراهُ مقنعاً فاعرضت عن ذكره ... »

وقال أيضاً :

يترشّفن من فمي رشفات هنّ فيه أحلى من التوحيد

« يقول أن هذه النسوة يمصصنَ من فمي مصات يمثلن التي هن — يعني الرشفات — في فمي أحلى من حلاوة التوحيد . . وهذا أحد ما يذهب المتنبي لأجله الى الكفر حيث جعل الترشف أحلى من التوحيد . . وقيل التوحيد نوع من أنواع البلح ببلاد الحجاز وهذا قول ضعيف وقيل انهُ المعشوق بعاشقه »

.... وأهم من ذلك وأنوى في الدلالة على حرية أبي الطيب في أمور الدين وتشاؤمه وتأثير كل ذلك في فلسفة أبي العلاء في دوره الثاني هي قصيدته المعروفة التي يجوز أن تعدّ آية في التشاؤم ونموذجاً في الزهد عن الدنيا وأهلها ومنها :

اذم الى هذا الزمان أهيله فأعلمهم قدم واحزمهم وغد
واكرمهم كلب وابصرهم عمى وأسعدهم فهد واشجعهم قرد
ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوّاً له ما من صداقته بدّ
بقلبي وان لم أرو منها ملالة وبي عن غوانيها وان كثرت صد
خليلي دون الناس حزن وعبرة على فقد من أحببت مالهما فقد

وقد عزّز الاستاذ رأيهُ في تأثر أبي العلاء بأفكار أبي الطيب وفي ما كان بينهما من القرابة الروحية بقصيدتين للمتنبي من أشهر قصائده وهما :

قد علّم البين منا البين اجفانا تدمى وألّف في ذا القلب احزانا الخ
و نعد المشرفيّة والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال الخ

فقابل بين ما جاء في هاتين القصيدتين من التشاؤم والزهد في الدنيا وأهلها وبين فلسفة أبي العلاء المعروفة ثم استنتج من هذه المقابلة نتيجتين لاريب فيهما وهما ان آراء أبي العلاء المعري لم تهبط عليه من السماء دفعة واحدة ولا هي كلها من ابتكاراته بل انما نمت في نفسه وعقله نموًّا تدريجيًّا بفعل عوامل ومؤثرات عديدة . وان شهرة أبي الطيب وشغف الناس بشعره الى هذا اليوم برجمان ليس فقط الى متانة ألفاظه وفصاحة عبارته كما يعتقد البعض بل الى معاني أشعاره وما فيها من روح التشاؤم والتردد في بعض أمور الدين المسلّم بها جهلاً

٣ — « الرومان » التاريخي في الآداب العربية المصرية

افتتح الاستاذ هذا البحث الطريف (١٩١١ في ٣١ ص) بمقدمة تمهيدية عن الرومان (القصة) عند العرب في الاعصر السالفة السابقة للعصر التاسع عشر والعشرين ثم تكلم عن ظهور القصة الحديث في أمتنا العربية مبتدئاً بذكر بعض الروايات والقصص التاريخية المنقولة عن اللغات الاجنبية الغربية أو التي وضعها كتّابنا تحت تأثير الروايات الغربية كالتي وضعها ادب اسحاق وخليل اليازجي ونجيب الحداد وشاكر شقير البتلوني وغيرهم . وكل ذلك في عبارات قليلة لكنها كافية لأن تكوّن في ذهن القارىء صورة واضحة لسير القصة عندنا حتى سنة ١٨٩١ . وهي السنة التي ظهر فيها اول قصة تاريخية بمعنى هذا الكلمة العصري للمرحوم جورجي زيدان الذي يعدّه الاستاذ ابا القصة التاريخية عند العرب

***

بعد أن ابان الاستاذ ما لمؤسس القصة التاريخية عندنا من الفضل على الآداب العربية اخذ يحلّل رواياته التاريخية تحليلاً دقيقاً يتناولها من جميع الجهات ويبيّن ما لهذه الروايات من حسنات وسيئات وما احدثتهُ من الاثر في الوسط العربي والقارىء الشرقي على الاطلاق . ثم بسط أثرها في سير هذا الفن الجديد في البلاد العربية . وهذه خلاصة ما قالهُ صاحب اليوبيل في بيان مقام مؤسّس القصة التاريخية عندنا : لقد احسن المرحوم جورجي زيدان في اختيار مواضيع رواياته من تاريخ امتهِ العربية الحافل بالحوادث العظيمة

التي يستطيع الكاتب المقتدر ان يبني عليها ما احبَّ من انواع الروايات كالدراما والتراجيديا والكومديا الخ كما انهُ اجاد في تفضيل القصة على غيرها من انواع القصص او الروايات التمثيلية لأن فيها مجالاً واسعاً لوصف الوسط وأثره في الحوادث التي يريد ان يمثّلها . اما اساليبه التي يستعملها في رواياته ونزعاتهُ فهي من نوع تلك الاساليب والنزعات التي تعرف بها المدرسة الفرنساوية الرومانية لا من نوع اساليب المدرسة الانكليزية . اي ان مؤسس القصة التاريخية عندنا اقرب الى « المدرسة » الواقعية realiste التي تبني رواياتها على الحقائق الواقعة المشاهدة منهُ الى المدرسة الانكليزية القديمة مدرسة دُكِنز سُكُت واتباعه التي تعتمد كثيراً في تفسير الحوادث إلى الاستعانة بالقوى التي فوق الطبيعية . ولكل من هاتين المدرستين حسنات وميئات ليس هنا محل بيانها . على انهُ لا بدَّ من الاشارة الى ان في روايات اصحاب المدرسة الواقعية ضعفاً ظاهراً في وصف العواطف والعالم الداخلي على الاطلاق ووصف الطبيعة وجمالها . وهو ما نراهُ ايضاً في روايات المرحوم جورجي زيدان . والاستاذ يعزو ذلك الى طبيعة الكاتب الذي يصح ان يقال فيهِ « وما علمناهُ الشعر وما ينبغي له » فهو على ما نعلم لم يتعاط نظم الشعر ولا كان يميل اليهِ وذلك شأن اكثر العلماء الحقيقيين الواعين . ولهذا ايضاً يرى الاستاذ ان الروايات الاولى من روايات مؤسس « الهلال » اقرب الى التاريخ منها الى « القصة » التاريخية الا ان ما تفقده هذه الروايات من الجهة البسيكولوجية والفنية تكسبهُ من جهة اخرى اعني انها تصوّر الحوادث تصويراً حقيقيًّا طبقاً للواقع كما ارتسم في ذهن الكاتب لا طبقاً للخيال الشعري او القصصي الذي تبتدعهُ مخيلة الكاتب . وفوق ذلك فان الطريقة التي اتبعها جورجي زيدان تدل على فهم صادق للمغازي التاريخية والادبية وتساعد على ادراك الروابط بين الاسباب والمسببات . ولاشك ايضاً في انهُ رفع بروايته التاريخية دع عنك سائر مؤلفاته مقام الآداب العربية في اعين المستشرقين واعين الطبقة الراقية من القراء .

ويزيد في شأن الروايات المذكورة انها احدثت تأثيراً بيناً في البلاد العربية وحركة « روائية » طيبة كما يظهر من محاولة اتباع بعض روايات ظهرت بعد ذلك كرواية « اليهودية الحسناء » لميخائيل المسيح الانطاكي « وصهيون الجديدة » للمرحوم فرح انطون واخرى لغيرهما ممن اخذ يقلّد روايات جورجي زيدان التاريخية وليس لهُ مقدرتهُ التصويرية ولا معارفهُ التاريخية والادبية . على ان تأثير روايات ابي القصة التاريخية ما زال ينمو ويرسخ واملنا ان ينتهي بتأسيس « مدرسة للقصة التاريخية » عندنا